المحاضرة الخامسة:الأسلوبية النفسية (التكوينية أو الفردية)

تمهيد:

رائدها "ليوسبيتزر (Leo Spitzer)، الذي أعطى رؤية جديدة لعلم الأسلوب، من خلال الإفادة منه في دراسة النصوص الأدبية. فوظيفة الأسلوبية التكوينية الأساسية تحليل لغة كاتب أو شاعر معين، وذلك في كتاب واحد وليس في جيع أعماله، « فهي ترتكز على تحليل الوظيفة التي تقوم بها الظاهرة الأسلوبية بالنسبة إلى الكتاب أو الكاتب، أو العصر أو الفن»"[1]" وأنّ دراسة هذه الظاهرة ليس بالضرورة أن تكون لها نفس الوظيفة في كتاب آخر لهذا الكاتب. فهي تعدّ لونا من ألوان النقد التطبيقي، وكما يسميها بيير جيرو نقد الأسلوب.

ويقول صلاح فضل في حديثه عن هذا الاتجاه أنّ: «كل انحراف أسلوبي فردي عن القاعدة الشائعة، لابد أن يمثل اتجاها تاريخيا جديدا شقه الكاتب، ولابد أن يكشف عن تغيير في روح عصره، وتحول أدركه ضمير الكاتب، وحاول ترجمته في شكل لغوي جديد بالضرورة، ألا يمكن إذن تحديد هذا الاتجاه التاريخي الجديد في بعديه النفسي واللغوي؟»"[2]" ولقد حاول سبيتزر وضع معالم هذا الاتجاه، ولعله من أبز النقاد الذين وفقوا في إقامة علاقة سببية نفسية المؤلف وأسلوبه؛ وتعدّ دراسته لأسلوب ديدرو من أخصب الدراسات التي تمت في إطار هذه المدرسة، فقد سبق لديدرو أن أعلن : إنّ الذين يزعمون هذا العلم بقضايا الأسلوب، سيحاولون عبثا أن يفكوا رموزي. وتقبل سبيتزر التحدي، وقام بفك رموزه؛ انطلاقا من نموذج إيقاعي بدا له أنه يسمع فيه صدى لصوت ديدرو وهو يتكلم. وهو إيقاع متصاعد يوحي بأنّ الشخص المتكلم تغمره موجة من الانفعال العاطفي تتجاوز كل الحدود، وتعكس

[1]– شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة، ط2: 1413هـ /1992م، ص 63.

[2]– صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق – القاهرة– ط1: 1419هـ/1998م، ص 58

في كتاباته في حركية إيقاعية متصاعدة، ترتبط بمزاجه العصبي، وبدلا من أن تخفف حدتها بالأسلوب، بمنحها طاقة وحيوية فائقة...إلى أن انتهى سبيتزر إلى القول بأنه: يبدو أنّ الجهاز العصبي والفلسفي والأسلوبي لهذا الكاتب كلها تتطابق بشكل دقيق[3]. وبهذا يكون قد استطاع الكشف عن الحالة الشعورية لديدرو من خلال كتاباته فقط.

وعلى هذا الأساس نجد عدة تسميات لها: الفردية والتكوينية والنفسية، وأيضا الأسلوبية المثالية؛ «ذلك أنّ الأسلوب نتاج فكر فردي، يعكس شخصية المؤلف، ويستجلي إرادته ومزاجه وثقافته وعوالمه النفسية والاجتماعية... ويتم التركيز في هذا التصور على أنّ الذهن او العقل هو المصدر الحقيقي للإبداع الأدبي»[4] فأسلوبية سبيتزر تقوم على رصد: «علاقات التعبير بالمؤلف، ليدخل من هذه العلاقة في بحث الأسباب التي يتوجه بموجبها الأسلوب وجهة خاصة، وأنّ أسلوبيته تبحث عن روح المؤلف في لغته»[5] وفي هذا مزج بين ما هو لساني ونفسي، «فهو يبدأ باللغة لينتهي بالنفس؛ مستكشفة عبر اللغة أسلوبها الذي يترشح عنه وضع نفسي»"[6]" ويمكن إجمال مبادئ سبيتز اللغوية في مايلي[7]:

1- معالجة النص تكشف عن شخصية مؤلفه.

2-الأسلوب انعطاف شخصي عن استعمال المألوف للغة.

3-فكر الكاتب لحمة في تماسك النص.

4-التعاطف مع النص ضرورة للدخول غلى عالمه الحميم.

---

[3]- صلاح فضل، علم الأسلوب، ص 182. بتصرف واختصار.

[4]- جميل حمداوي، اتجاهات الأسلوبية، ص 14. باختصار.

[5]- حسن ناظم، البنى الأسلوبية، ص34 -35، باختصار وتصرف

[6]-نفسه.

[7]- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص 72. بتصرف

لذا ينبغي على الباحث أثناء اعتماده على الأسلوبية التكوينية، أن يكون على اطلاع واسع بأدوات التعبير المستعملة في اللغة، لأنّ مهمة النقد الأسلوبي «تتجلى في تقويم الطريقة التي يعتمدها مستعمل الخطاب في استخدام المصادر الأسلوبية للغة»"[8]" فأسلوبية الفرد تهتم بدراسة علاقات التعبير مع الفرد أو مع المجتمع الذي أنشأها واستعملها، لذا فهي ليست معيارية أو تقريرية؛ وإنّما هي تكوينية، لأنّها تذهب إلى تحديد الأسباب ولذا انتسبت إلى النقد الأدبي.

مبادئ الأسلوبية التكوينية:

قامت الأسلوبية التكوينية على مجموعة من المبادئ نجملها فيما يلي:

- أنّ النقد يجب أن ينطلق من العمل الأدبي نفسه، والآخر أنّ الأسلوبية يجب أن تكون نقدا قائما على التعاطف مع العمل وأطرافه الأخرى.
- تركيز البحث على الأنظمة التعبيرية التي يضيفها المبدعون إلى لغتهم الخاصة، بمعنى أنها تهتم بالعبارة بعيدا عن التخاطب والتواصل.
- لا تستمد الظواهر الشكلية في الأثر الأدبي تبريرها من ارتباطها بروح كاتبها فحسب؛ وإنما يبرر وجودها ايضا روح الجماعة التي ينتمي إليها.
- اللغة بتجلياتها المختلفة؛ ليست إلا الوجه الظاهر لشكل عميق باطن تربط بينهما وشائج لا تنقطع.

كما وتجدر الإشارة، أن أسلوبية الفرد تلتقي مع أسلوبية التعبير في كونهما تنظران إلى النص بحثا عن البنى اللغوية ووظائفها داخل النظام اللغوي والتعبير الوجداني المتضمن

[8]– بيير جيرو، الأسلوبية، تر. منذر عياشي، مركز النماء الحضاري، للدراسة والترجمة والنشر، ط2: 1994م، ص 73.

فيه"[9]". وخلاصة القول إنّ الأسلوب حسب هذا الاتجاه هو الروح؛ لأنه الأساس في تحقيق الانسجام والاتساق في النص الإبداعي.

[9]– منذر عياشي، مقالات في الأسلوبية، ص 45. بتصرف